الشيخ ابراهيم الحوراني

آثارهُ في التعليم

قلت في المقالة التي خصصتُ فيها ترجمة الفقيد ونشرها المقتطف في الجزء الاسبق انهُ برح دمشق واستوطن بيروت حيث عُيِّن استاذاً في المدرسة الكلية الاميركية لتعليم فنون اللغة العربية . وفاتني القول انهُ بعد ما ترك التعليم في المدرسة الكلية وتولى رئاسة كتابة « النشرة الاسبوعية » وترجمة وتصحيح الكتب الدينية والعلمية والادبية ناط به المرسلون الاميركيون — علاوةً على هذه الاعمال — تعليم آداب اللغة العربية في المدرسة الاميركية للبنات . فقضى في هذه الخدمة عدة سنوات كان فيها خير معوان لتلك المدرسة الشهيرة على تهذيب الفتيات وتثقيف عقولهنَّ وإعدادهنَّ لان يكنَّ في طليعة الواضعات لاساس نهضة المرأة الشرقية وارتفاعات لنبراس الفضائل والآداب في الهيئة الاجتماعية . وكثيرات من تلميذاته هنَّ الآن من فضليات الزوجات والامهات القائمات بتدبير منازلهنَّ وتربية اولادهنَّ على سنن الحكمة والفضيلة ويبتهنَّ عدد ليس بقليل من المعلمات والكاتبات والشاعرات وكلهنَّ يذكرنَّ فضلهُ ويأسفن على فقدهِ اشدَّ الاسف

وسنة ١٨٩٤ انتدبهُ رئيس المدرسة البطريركية للروم الكاثوليك في بيروت لتعليم فنون اللغة العربية فيها ساعتين في اليوم . فاجاب طلبهُ وظلَّ تسع سنوات يتوفَّر على تعليم الطلاب وتغذية عقولهم بلبان المعارف والآداب . وبين خريجي تلك المدرسة الشهيرة في هذه السنين التسع كثيرون هم الآن من نوابغ الشعراء والكتَّاب وكبار الاساتذة والمعلمين وكان لفقيدنا معظم الفضل في تثقيف اذهانهم وترويض افكارهم وتذكية قرائحهم وتشحيذ أقلامهم وتوسيع دائرة معارفهم وتمليكهم اعنَّة البراعة في الانشاء نثراً وشعراً وتعويدهم احتذاءهُ والنسج على منوالهِ في اطراح الركيك السخيف والعويص الغريب واختيار افصح الالفاظ وأبلغ التراكيب

وفي صيف سنة ١٩٠٣ استقال رئيس تلك المدرسة التعليم وأُلحف في الطلب فلم يرَ الرئيس بدًّا من إقالتهِ . لكنَّ تركهُ التعليم في المدرسة البطريركية لم يخفف عنهُ شيئاً من عبء اعمالهِ التي سبقت الاشارة اليها لان المرسلين الاميركيين زادوا عليها أن فوَّضوا اليهِ تفسير الكتاب المقدس مبتدأً من اسفار العهد القديم . وما أبطأوا أن اضافوا الى هذا كلهِ انتدابهُ لتعليم البيان والانشاء والمنطق في مدرسة اللاهوت

وظلّ قائماً باعباء الكتابة والترجمة والتصحيح وتفسير الكتاب المقدس والتعليم في مدرسة اللاموث الى خريف سنة ١٩١٣ حين أصابهُ داء ذات الرئة وشدَّ وطأتهُ عليهِ حتى كاد يودي بهِ لولا قوَّة بنيتهِ وما بذلهُ الاطباء وكريمتهُ نجلاء من العناية بهِ والسهر عليهِ

ولما زرتهُ في بيروت في صيف سنة ١٩١٤ وجدتهُ قد أبلَّ من دائهِ لكنهُ لم يتصل من برُحائهِ . فكان ناحل الجسم خائر القوة وعلى محيَّاهُ آثار ما عاناهُ من شدة السقم والالم . وبعد شهرين زرتهُ مودّعاً فشاهدتُ نجلهُ بينهُ في حالتهِ ورأيتُ وجههُ مشرقاً بنور الصحة والعافية . فودعتهُ آسفاً على فراقهِ ومسروراً من تحقق شفائهِ وسلامتهِ . ولم يدر قطُّ في خلَدي انهُ لن يعيش سوى بضعة عشر شهراً تدركهُ بعدها الوفاة وأنَّ اجتماعي بهِ حينئذٍ كان آخر عهدنا باللقاء في هذه الحياة

هذه خلاصة آثار الفقيد في التعليم وستُبقيهِ حيّاً في تلاميذهِ وتلميذاتهِ المنتشرين في سورية ومصر واميركا وكثيرٌ ما هم

(٢) آثارهُ العلمية والادبية

اما آثارهُ العلميَّة والادبية ففي مجلدات النشرة الاسبوعية مدة اربعٍ وثلثين سنة وفي عشرات من الكتب والرسائل الدينية والعلمية والادبية التي ترجمها او صحَّح ترجمتها وفي كتابهِ « الآيات البيّنات في غرائب الارض والسموات » و« مناهج الحكماء » و« الحق اليقين » و« جلاء الدياجي » وفي مجلة « الرئيس » التي اصدرها ثلث سنوات بالاشتراك مع الدكتور لويس الخازن واودعها ادقَّ المباحث العلمية واهم الفوائد اللغوية . وفي ديوانهِ الكبير الذي سأُعنى بجمعهِ وطبعهِ عندما تسمح الاحوال

وكان مع شدَّة تضلُّعهِ من العلوم اللغوية ضارباً بسهم كبير من العلوم العقليَّة والطبيعيَّة والرياضيَّة . ونظم في صباهُ ارجوزة سمَّاها « البديعة في علم الطبيعة » . وكان راسخ القدم في علم الهندسة واسع الاطلاع في علم الفلك شديد الشغف بكواكب القبَّة الزرقاء كثير التحدُّث بجمال شموسها واقمارها . فاذا جنَّ الليل خرج بتلاميذهِ الى شرفة منزلهِ ووقف بينهم كالفلكيّ في مرصدهِ يُريهم كيف تُرقب الكواكب وتُقدَّر منازل الشهب الثواقب في جنح الغياهب . واذا خلا بنفسهِ وطاب لهُ النظم استلَّ يراعهُ ونشر طرسهُ وأسترسل مطيِّفاً التصوُّر وحلَّق بها في جوّ الخيال ناشباً في الفضاء ثوب النيازك في عنان السماء . حتى إذا جاز بها مطار النسر وجاس مدار السماك استقرَّ على ضفاف المجرَّة ينظم دراريَّ الافلاك نظم السرّ في الاسلاك . وقلَّ نظم قصيدةٌ او مقطوعة لم يرقَّ فيها الى النجوم — الثوابت والسيَّارة

ليأخذ منها فوائد تلك التفصارة على سبيل التورية او التوجيه او الاستخدام او الاستعارة

٣) أسلوب كتابته

وكان لهُ في الكتابة — نظماً ونثراً — اسلوب خاص امتاز بصحة اللفظ وسلامة التركيب ووضوح المعنى . فلم يتكلف الاسجاع في نثره ولا المحسنات البديعية في شعره الاَّ اذا جاءته عفواً وعنت لهُ طوعاً بلا تعمُّل ولا التزام . وكان في كليهما غزير المادَّة سريع الخاطر قليل الترسُّل . يجلس للكتابة في اي موضوع عرض لهُ فيرصف الكلام كما شاءت الرقة واراد الانسجام ويرسل النثر كمن ينثر الزهر . ثم تأتيهِ القوافي منقادةً فتنشئ صفوف الجمل والتراكيب وتحلُّ الروابط والمرافق وتحوِّل الفصائل الى فواصل والنثر المرسل الى نثر مسجَّع او درٍّ مرصَّع . وكثيراً ما كان الوزن يتسرَّب في اسجاعهِ ويحوِّلها الى مقاطيع شعرية مختلفة الاوزان كما في الرقم التي انشأها في اواخر حياتهِ وادرجها في النشرة الاسبوعية وبلغ فيها غاية الإبداع ونهاية الافتنان

وجملة القول ان اسلوبهُ في الشعر والنثر كان اوضح مثالٍ لما يسهل على القارىء فهمهُ ويصعب على الشاعر والناثر تقليدهُ وهذا هو السهل الممتنع . طالع كلَّ ما خطَّهُ يراعهُ تجدهُ نسيج وحدهِ في وشي بردهِ ونظم عقدهِ . اذ ترى المعنى في اللفظ من حيث الجلاء والصفاء كالصهباء في الاناء يشرق في الطرس إشراقها في الكأس ويفعل بالنفس فعلها بالرأس

هذا وفي قولي انهُ كان نسيج وحدهِ في إجادة الانشاء لا ابني حكمي على ما طالعتهُ من آثار يراعهِ المطبوعة والمنثورة على صفحات الكتب والصحف . فانها على كثرتها وصدق دلالتها على صحة هذا الحكم قد بعث على الغض من قيمتها مظنَّة الاتئاد في كتابتها والترسُّل في تنقيحها وتهذيبها قبل طبعها ونشرها . ولكني اقول هذا بناءً على ما تحققتهُ بنفسي عن غزارة مادتهِ وسرعة خاطرهِ في عدة مواقف واستناداً الى ما عرفتهُ عنهُ من هذا القبيل بعد استقرائي الطويل لاسلوب إنشائهِ في كتبهِ الخصوصية

ولا يخفى ان الكاتب الشغل مهما يكن من شدة حرصهِ على الترسُّل في ما يكتبهُ للطبع والنشر فانهُ في كتبهِ الخصوصية الى الاهل والاقرباء يترك التكلُّف ولا يعنى بهِ فيجري كلامهُ فيها مجرى الطبيعي مفرغاً في قالبهِ الحقيقي بالغاً في جودة إنشائهِ الدرجة التي تمكِّنهُ منها بداهتهُ بلا تعمُّل ولا إعنات

وعندي من كتب الفقيد الخصوصية ما ينيف على الثلاثين كتاباً كتب بعضها اليَّ

وبعضها الى غيري من انسبائه في اوقات مختلفة ومواضيع متنوعة وبين اقدمها تاريخاً واحدثها عهداً مدة لا تقل عن ثلثين سنة . وهي كلها على اختلافها في التاريخ والموضوع وتفاوت منزلة الذين كُتبت اليهم في العلم والمعرفة تراها اذا طالعتها متفقة اتفاقاً تاماً في جمال الاسلوب وحسن انتقاء اللفظ وشدة متانة التركيب والتفنن في جودة السبك ورشاقة التعبير . ولا يخامرك اقل ريب في كونها مكتوبة على البديهة من غير توقف ولا تفكر . ولو أردت نشرها وعرضها قبل طبعها على ابرع الناقدين لما وجدتهما أقل حاجة الى التنقيح والتصحيح وسأنشر بعضها في ذيل ديوانه

وللفقيد معي ومع غيري من معارفه وأصدقائه كثير من لطائف الحوادث الشاهدة على توقد قريحته واستعدادها لتليينه كلما أراد الابتداه والارتجال . ولضيق المقام اكتفي بذكر واحدة منها وهي

زرته يوم احد في اوائل شهر برليو سنة ١٩٠١ فرأيته يتأهب للذهاب الى المدرسة البطريركية لالقاء خطبة في احتفالها السنوي فصحبته في طريقه اليها . وفيما نحن في المركبة لاح لي انه منقبض فسألته : — مم تشكو ؟ قال من ضعف شديد في ذاكرتي فأشعر كأنها ماتت او كادت . قلت وكيف القريحة ؟ قال على ما تعهدها من شدة المضاء قلت أجزْ إذاً « أسفاً طيها ذاكره » قال لبيك يا عديل وانشد « سكنت ديار الآخره » قلتُ « كانت تدور على النعي » فاجاب على الفور « دارت عليها الدائره » . وقد علمت منه بعد ذلك انه استهل خطبته بهذين البيتين

وكان من ابرع قالة المعنى[1] واشهر الذين حازوا قصب السبق في ميدانه . وله فيه مطالع[2] روائع ساتطف شيئاً من بعضها للدلالة على علو كعبه ورسوخ قدمه في هذا الفن

ولقد شهدته غير مرة يجول في هذا المضمار فكنت اراه يتدفق في القول تدفق السيل مبادهاً سامعيه بمرتجلاته الشائقة ومبتكراته الرائقة ويرائي بالفاظه شيئاً فشيئاً من هضم العاني وحضيض المبتذل الى قنة الفصيح البليغ ويتدرج في مراعاة الاعراب والمحافظة على اوزان

---

(١) المعنى شعر العامة في جبل لبنان وما حوله كالزجل في مصر وله اوزان مخصوصة يغرب بعضها من اوزان البحر الوافر والكامل والمجتث والمديد في نظمه القافية ومحافظة بسيطة على الوزن بلا التفات الى صحة النحو والاعراب . وكثيراً ما يأتون بمفردات من اللغة الفصحى ويستعملونها في مواضيع مختلفة ويكثر فيه الاكثر ما يلتزم في النثر من البديع اللفظي والمعنوي والالغاز والمعميات ويأتون في ذلك كله بأعجب المطرب . ومنه ضرب يعرف بالمدبات او القراديات (٢) جمع مطلع وهو في المعنى كالمخيل في الزجل

فما يشعر سامعوه الاَّ وقد انتقل بهم فجأة — وهم لا يدرون — من قول المعنَّى الى قرض الشعر بن من ثمر الزهر الى نظم الدرّ. كما كان يتقن في انشاد الرَّقم من النثر المرسل الى النثر المقفّى الى الشعر الموزون

وكان فكتور جدّ فكر وطروبًا اي طروب شديد التصابي كثير المطايبة والمؤانسة حتى لاصغر الاولاد رفيق الحاشية اين المريكة · اذا غنَّاك شعرًا او انشدك معنًى رأيته يتصابى و يتمايل من شدّة طربه · ودام على ذلك الى آخر حياته كأنهُ هو الناطق بلسان البهاء زهير : —

"اني كبرت وانما تلك الشمائل باقيه
وتفوح من عطفيَّ انفا س الشباب كما هيه
عندي من الوجد القديم بقية في الزاويه"

وكثيرًا ما اشار الى ذلك في قصائده الغزلية

وكان شديد الشغف بسماع الغناء فيطرب لكل صوت رخيم سواءٌ كان افرنجيًّا اوعربيًّا — مصريًّا او شاميًّا او عراقيًّا · يدلُّك على ذلك كثرة منظوماته في كتاب الترانيم الروحية للطائفة الانجيلية في بيروت والاناشيد الادبية في احتفالات المدارس والمواليات المزدانة والمسبَّعة والاغاني الموافقة « للغنايا » ولكثير من الادوار المصرية

(٤) آثاره

(١) في المعنَّى والعذّيات

قال من عذبة في ذات حسناء شاهدها تبكي :

خلّي لي اللولو منظومْ في عينين بحسبي الروم
منثور ناورد الخدّين شهدتلو بالحسن نجوم

ومنها

لولو عاياقوت الخدّ وقطرات الندى عا الورد
دمعك وحدو جوهر فردْ مثلو من العالم معدوم

وقال في ختامها

ضمن عرق جبينك كلّ وردك تايزينك
مرّ بدربو عاعينك توهمنا دمعك مسجوم

وقال من عدّية يصف فيها حسان دمشق الشام في مجلس انس

شبّانك يا شام القمار وصباياك البيض شموس
ما في شكٍّ في الاقطار بحسن الخلقه والملبوس
ما في مثال اقمارك في كل بلاد الافرنج
بغدودن لمعت نارك وحول النار تلالا الثلج
وشموسك علو مزارك عا اعلى التقديس والحج
تكثر غزلان ديارك ويقل منزلها مانوس

وهي طويلة قال في ختامها : —

قولوا لي يا صبايا واحكوا الدغري بالتمام
كيف شفتوا ها القضايا فيها شي كلّه حرام
لولا ربّ البرايا ما كان عابد الأصنام
ولولا خوف المنايا ما دقّ الراهب ناقوس

ومما قالهُ في مطلع غرامي التزم فيه الجناس التامّ : —

حتّى على المحبوس في سجن الهوى ضاقت عليّ الارض من أربع أقطار
سهرت عيوني وطال ليلي في النوى من طول ليلي نسيت شو شكل النهار
سهرت عيوني وطال ليلي في النوى يا من شفاهُك تورخالي من النوى
غنّيت لحن حجاز وعراق ونوى حتى بكوا طيور السما ولانوا الحجار

ومنهُ

حتى بكوا طيور السما ولان الصفا وزاد نهر الدمع عا نهر الصفا
يا حسرتي حلّ الكدر بعد الصفا وصار الفي وصاحبي وحش القفار

ولهُ من مطلع غزل في لبنانية حسناء مهذبة : —

ريح الصبا بحياة غصن البان والورد والنسرين والريحان
من اين جبت المسك في جيوبك تخمين مرّيت على الخلّان
من اين جبت المسك في جيوبك وطّات الاقطار بطيوبك
كان الحبيب بفرق دروبك حتى نشرت العطر في البلدان

ومنه

ريح الصبا يا راحة الارواح ملّي بتذكار الهوى الافداح
ذكرى حبيبي لا مصفّى الراح منها على طول المدى سكران

ومما قاله مطلع مخمّس مذهّب مرصّع مردوف . وهو من مبتكراته وقد أودعه ما شاء من سحر البلاغة والبيان وبلغ فيه حدّ الاعجاز وغاية الاجادة والاتقان

الردّة

يا من تركني وسار في الاسحار يا مجلى الانوار والاثار
سرّك مصون بهجة المفتون ما تدركوا الانظار والافكار

(الثالثة من الخمسة من المخمّس)

سرك مصون بهجة المفتون لولا دموعي والعيون عيون
يا عين عينك دائما سنون

(التذهيب)

لطّع أكباد الغزلان وجدول آساد الفرسان واستعبد حيّ وغيلان
وليل وعاشقها المجنون

(الترصيع)

ولحظك صاب اسود الغاب برشق حراب وشق كبود
ودار الراح بغير أقداح وبلبل صاح بلحن العود
ومال البان وسرتي بان وكان الكان بكاف ونون

(الردف)

سرّ الهوى مذفرق مع دمعة العاشق يا نسمة المخلوق يا آية الخالق
قلب الفتى مسروق وطاقتك السارق

(تكملة التخميس)

سحر العيون يسرق الارواح ويبطر الاخفى من الاسرار

وله من مطلع آخر :—

آمنت انا برهان ما يلزم انك بي الزهرة وبدر التم
من طور خدّك ماترب موسى من اين جيت المنّ للبسم

(٢) في الموالياة

ولهُ من الموالياة المربعة : —

اهل الحماسة على اهل الهوى حكّام والمشق جايز على العشّاق في الاحكام
سلوى اسير المحبة جنّة الاوهام يصيد طيف الحبيب بشبكة الاحلام

ولهُ منها : —

يا مفرد الحب مالي في الهوى ثاني وهجتي عن جمالك ما لها ثاني
اسقي بدمعي ورودك والسوى جاني علي تجني وقلبي يعشق الجاني

ولهُ منها : —

يا ناعس الطرف حبّك ناظرو ساحر ما جنّ في الحب لولا لحظك الساحر
يا كاشف السر مالي في الهوى ساتر خلّيت خلّك مثل في العاشقين سايرِ

وكان قد انشدني غير مرّة بعض مواليا تو المسمّاة المعروفة « بالبغدادي » ولكن لم يبق منها شيء في محفوظي

(٣) الاغاني والاناشيد

حضر الفقيد في ايام صباهُ مجلس انس وغناء في دمشق الشام فاقترح عليهِ بعض الحضور ان ينظم شيئًا على اغنية مصرية قديمة كان المغني آخذًا في إنشادها ومطلعها « يابو الحديد الوردي ارحم شجيّك ومولع » فقال

هبّت نسيمات الزند من بان سلمى والأجرع
وهيجت نار الوجد لما سنى سلمى لمع

ومنها

يالاعين السود الخجل قد حلّت سلمى قتني
يا حاملاً سيف العذل أسيافُ جفنيها اقطع

ومنها

دع عنك عذل المشتاق وانهج سبيل الاشواق
وان تكن سلمى الساق فاسجد لباريها واركع

واقترح عليهِ في مجلس آخر ان ينظم على اغنية « عاليانا يانا من غرامو يانا » فقال

لازمة

بالقد سلمى تُخجل الاغصانا والّلحظ يسبي الغيدَ والغزلانا

دور

دارت عليها من لظاها الراحُ ... وفي هواها راحت الارواحُ
فكم بدا من خطبها افتاحُ ... اصبحت منها واضحَ المكراتا

دور

يا عاذلي دمعي سلافُ الحانِ ... والحبُّ ديني والهوى ايماني
نحن النصارى ربُّنا ذو الشانِ ... بالحبِّ جئنا الجيلَ ارسالنا

ونظم انشودة وداعية لاحدى المدارس قال فيها : —

سلامٌ سلامٌ على ذي الربوعْ ... سلامُ وداعٍ أذابَ الفؤادْ
وليس عجيباً ففيهِ ولوعْ ... يُذيبُ لفقدهِ فؤادَ الجمادْ
نوحُ وتبكي لفقد النعيمْ ... بتلك الديارِ وتلك الشموسْ
وحين تسير بدمعٍ سجيمْ ... تسير الجسومُ وتبقى النفوسْ

وفي طويلة قال في ختامها : —

سلامُ وداعٍ لمغنى الصباء ... وارواحِ روضٍ لبرد الجراحْ
وازمانِ رغدٍ مضت بالسناء ... ومرَّت سريعاً كمرِّ الرياحْ
فمستودع الله كلُّ الصحابْ ... بشكرٍ يقصّر عنهُ الكلامْ
وللكلِّ نرجو عظيم الثوابْ ... وطول بقاءٍ وحسن اختتامْ

ونظم سنة ١٨٨٤ لمدرسة البنات الاميركية في صيداء نشيدة طويلة تقع في عشرين دوراً مطلعها : —

بنتَ امِّ المجد صيدا ... أمُّ صورٍ في العظمْ
نبية الادهار صيدا ... صنتِ آصادَ القدمْ

ومنها

مشهدَ العهد القديمِ ... جارةَ البحرِ الكبيرْ
انتِ جناتُ النعيمِ ... ونعشُ الروضِ النضيرْ

ومنها في الختام

وليدم اهلك طرّا ... في امانٍ وسلامْ
وليكن بحراً وبرّا ... حفظهم حسن الختامْ

ستأتي البقية

اسعد داغر